

الخارجي والاكتفاء منه بالنسمة الأسيانة ، ولكنها - وهي تمسك بأحشاء الأحداث وتقلب وقائع الحياة - تعتصر القلب من الألم المحبط المكتوم ، وتمعن في تجسيد خصوصية وقعها على النفس - بالرغم من طابعها العام المباشر - حتى لتصل بها إلى ذروة الالتحام بمصير الشاعر الشخصي ، فتصيب أحلامه ورؤاه ، وتلخص عالمه ، وتحدد بشكل حاسم لون وعيه وعمقه ولا نهائيته .

ومنذ قال الشاعر العذري القديم كشفا عن لحظات مواجهه الحميمة :

نهاري نهار الناس حتى إذا دجا لى الليل هزنتى إليك المضاجع
وقد تأكد لنا شعريا أن هذا الليل يقترن فى وجدان الفنان بالوحدة الموحشة والمواجهة العارية مع أحزانه الموجعة ، فكأن النهار ملاءة بيضاء تلف الفرد مع الجماعة ، فاذا انقضت هذه الملاءة أدرك كل منهم توحده وحيرته المبهمة ، ولقى الكامن من شجاء وما يعتصره من اغتراب ، فاذا ما نمت هذه اللحظات وامتدت جذورها فى أعمال النفس تمددت شجرا كثيفا يضاعف بالكتلة الصماء والحفيف المخيف والظلال الموغلة فى الظلمة ما قد يعترى الليل من شفافية ، ويحجب ما قد عساه أن يبرق خلاله من نجوم ، إن شفرة الليل النابغى الجاثم على صدر الشعر العربى ، وخيوط الشعر الأسود الليلى عند أمرى القيس ، ومواجد الليل العذرى ، تصب كلها عند صلاح عبد الصبور فى شفرة جديدة ، تجعل من الليل " بيت الجنون " كما يقول فوكو عندما يصبح " شجر الليل " المعادل الرمزي لرؤية صلاح عبد الصبور للتاريخ والكون ، فى فترة محددة يحرص على إثبات تاريخها : من يناير ١٩٧١ حتى مارس ١٩٧٢ عندما ذهبت سكرة النكسة ، وجاءت فكرة مواجهة الهزيمة الداخلية للإنسان العربى . وفى " تأملات ليلية " - أولى قصائد المجموعة - يتجلى الحس المأساوى ، على المستوى الشخصى ، فى محاولة تعقيل الشعور ، التى تنتهى باصطباح العقل باللون الأسود العقيم . فالشاعر ينفصل عن دنيا الناس ، يتأملهم ويفرق فى شجونه ، ويود لو لم يشاركهم عبء هذا الوجود ، يبصر وحده فيواجه من الكوارث الداهمة أقسى ما يخشاه ، وهو : العى " والسقوط فى كمين الصمت العميق ، فيود لو عاد لرحم الحياة:-